

كتب بالعبرية

الجيل المرفوع الرأس*

(هدور هزكوف)

داني رابينوفيتس وخولة أبو بكر

تل أبيب: كيتز، 2002. 197 صفحة.

الأنباء السارة التي يحملها داني رابينوفيتس وخولة أبو بكر هي أن من الممكن إقامة تعايش عادل ومثمر، على أساس المساواة بين اليهود والعرب في هذا البلد. يمكن، مثلاً، تأليف كتاب مشترك يكون ثمرة تعاون بين باحثين، يهودي وعربي، على أساس المساواة وباتفاق كامل على التحليل والاستنتاجات.

أمّا الأنباء المكدرّة فهي الاستنتاجات. فرابينوفيتس وأبو بكر، في كتابهما الجديد "الجيل المرفوع الرأس" (في سلسلة "الإسرائيليون"، من إصدار كيتز)، الذي يعالج موضوع الشباب العرب في إسرائيل، يتوصلان إلى الاستنتاج التالي: من الممكن التوصل إلى تعايش على الصعيد القطري كالذي توصلنا إليه على الصعيد الشخصي، لكن فقط إذا لم تعد إسرائيل دولة صهيونية وأعدت تعريف نفسها كـ "مشروع دولة لمواطنيها" لا يتمحور حول جماعة إثنية على حساب الجماعة الأخرى؛ مشروع لا يكاد يحظى بأيّ تأييد بين الجمهور اليهودي.

يصف الجزء الأساسي من الكتاب، وهو بعنوان "تراجيديا إسرائيلية"، التغيير الذي طرأ على ذهنية الأجيال لدى الجمهور العربي في إسرائيل خلال السنوات الأخيرة. ويصف الكتاب الجيل الثالث للأقلية القومية العربية بأنه أقلية مقموعة في الدولة اليهودية. وخلافاً للجيلين اللذين سبقاه، يطالب الجيل الجديد الدولة بحقوق جماعية، وليس فقط بمساواة في الحقوق المدنية على أساس فردي. إنه يطالب بذلك بثقة كبيرة بالنفس، على أرضية شعوره بالإحباط - الذي يصل إلى درجة اليأس - من النتائج الهزيلة للنضال المدني من أجل المساواة، وعلى أرضية نضوج الوعي القومي الفلسطيني.

لا تقتصر أهمية هذا الجيل على أنه يحمل سمات قادة المستقبل للجمهور العربي، بل إنه أيضاً، إزاء حالة الفراغ على الصعيد القيادي، يمارس منذ الآن دوراً قيادياً. وفي ظل غياب إطار فكري منافس، فإنه يعبر في الواقع عن مشاعر وتطلعات أبناء الجيلين الأكبر سناً أيضاً. إنه يعبر عنها سواء تجاه الداخل، أي الطائفة العربية، أو تجاه الآخر،

(* مترجم عن العبرية من موقع صحيفة "هآرتس" (17/6/2002) في الإنترنت:

<http://www.haaretz.co.il>

أي الطائفة اليهودية. وهو يخاطب الجمهور اليهودي بصوت إسرائيلي واضح، ولغة عبرية صافية، ومن خلال معرفة أساسية بالثقافة الإسرائيلية. وكما تقول د. أبو بكر، أستاذة علم النفس السلوكي في كلية "عيمك يزراعييل": "نظراً إلى أنهم، قياساً بأبائهم، أكثر دراية بالمجتمع الإسرائيلي، وأكثر انخراطاً في الحياة اليومية الإسرائيلية، فإن خطابهم السياسي أقوى تأثيراً من خطاب آبائهم. إنهم أيضاً يستخدمون الوسائل الإعلامية بصورة حرفية أكثر."

إن أبناء الجيل المرفوع الرأس هم مواطنون في الدولة، صغار السن، ولدوا في الربع الأخير من القرن العشرين، وهم في سن العاشرة أو في العشرينات من أعمارهم. إذا كان الواقع المشترك بين جيل أجدادهم هو حرب 1948 ونتائجها، وإذا كان الواقع المشترك بين آبائهم هو الفترة ما بين حرب الأيام الستة [1967] وأحداث يوم الأرض في سنة 1976، فإن الواقع المشترك بالنسبة إليهم هو التظاهرات الطلابية التي جرت في مطلع سنة 2000، وبصورة خاصة أحداث تشرين الأول/أكتوبر 2000 وانتفاضة الأقصى.

إن عملية التنشئة الاجتماعية لهذا الجيل، خلافاً للجيلين السابقين، لم تقترب بصدمة على وجه التحديد، وإنما ارتبطت بمسارات، قوتها أخذة في التعاضد: تزايد قوة الحركة الوطنية الفلسطينية، وتوقد الوعي القومي لدى عرب إسرائيل. إن واقعهم الأساسي هو الصراع: صراع بينهم وبين الدولة، بينهم وبين جيل آبائهم، والصراعات التي يشهدونها داخل طائفتهم - بين أيديولوجيات، وبين ديانات، وأيضاً بين الجنسين. لقد استوعبوا قيم الصراع ولا يترددون في خوضه.

إن قوة هذا الجيل تكمن في الجرأة والثقة اللتين اكتشفهما للتعبير عن المشاعر التي نضجت بين الجمهور العربي كله. وخلاصة رسالته، كما يقول مؤلفاً "الجيل المرفوع الرأس"، هي: "نحن فلسطينيون فخورون. كوننا مواطنين في إسرائيل لا يجعلها دولتنا. لن نكتفي بمكانة مواطنين من الدرجة الثانية في وطننا. وسوف نبلور مستقبلنا، الذي نعتزم تكوينه بقوانا الذاتية، من عناصر تختلف عن العناصر التي استخدمها آبائنا."

يعرف أبناء الجيل المرفوع الرأس أنفسهم، في الأغلب، كـ "فلسطينيين مقيمين بإسرائيل"، أو "فلسطينيين مواطنين في إسرائيل"، لكن لا كـ "عرب إسرائيل" أو "عرب إسرائيليين". ويتبنى المؤلفان المصطلح الدارج اليوم بين العرب في إسرائيل، وبيبرزان في معالجتهم - ولا سيما فيما يتعلق بأبناء جيل الشباب - العنصرين الأساسيين للتعريف الذي يطلقونه على أنفسهم، وهو: وطنيون فلسطينيون ومواطنون إسرائيليون - وبهذا الترتيب. إنهم متعلقون بهويتهم القومية الفلسطينية، ويفتخرون بها أكثر جداً من افتخارهم بكونهم مواطنين إسرائيليين.

إن دولة إسرائيل بالنسبة إلى الجيل العربي الإسرائيلي الشاب، كما تقول أبو بكر ورابينوفيتس، وهو محاضر كبير في دائرة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في جامعة تل أبيب، "لا تمثل أي شيء إيجابي أكثر من ترتيبات فنية عملية كالجنسية، وبنى تحتية مادية وتنظيمية، وخدمات صحية، وتعليم، وحق حرية التنقل بجواز سفر معترف به دولياً. غير أنهم يعتبرون أنفسهم، أولاً وقبل كل شيء، أبناء الشعب الفلسطيني وبناته. إنهم في نظر أنفسهم شركاء كاملون في النضال الوطني الفلسطيني، ومن خلاله - لا من خلال مؤسسات الدولة - يسعون لإيجاد تعبير عن طموحاتهم السياسية."

خلال السنتين المنصرمتين، كانت هذه النظرة التي يحملها الشباب العرب في إسرائيل تزداد حدة كلما احتدت المواجهة بين شعبهم وبين الدولة التي يقيمون بها، وكلما قيّدت الدولة - بسبب المواجهة، بين أسباب أخرى - قدرتهم على تحقيق مساواة كاملة في الحقوق، وتجسيد حقوق جماعية لهم كأقلية قومية، وإن بصورة جزئية.

لقد التفت أبناء الجيل المرفوع الرأس إلى المحاولات العقيمة التي قام بها آباؤهم، "الجيل المسحوق" كما يصفه رابينوفيتس وأبو بكر، للحصول على مساواة في الحقوق المدنية. ولا حظوا أنه على الرغم من ارتفاع النشاط الجماهيري بين العرب ارتفاعاً ملحوظاً في أواخر السبعينات وخلال الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، فإن الجيل الأوسط لم ينجح في إحداث تحول جارف في العلاقات بين الأقلية العربية والدولة. وإن كان حدث تحسن معين على طريق المساواة في الحقوق المدنية، فإنه كان هامشياً، تجميلاً، ولم يطل المشكلات الأساسية للأقلية العربية في الدولة. وبلغ الاستخفاف بهم ذروته، طبعاً، خلال فترة رئاسة إيهود براك للحكومة. فقد عامل براك، الذي حاز نسبة تأييد عالية بين الناخبين العرب (96٪)، ممثلهم في الكنيست باستهتار، وبتجاهل تقريباً. وبذلك عزز انطباع الشباب العرب بأن لا فائدة في النضال البرلماني، وبأن الأدوات الديمقراطية المتاحة لهم لا تمكنهم من كسب نفوذ في المجتمع الإسرائيلي. كما أن ممثلهم في الكنيست يصطدمون باستمرار بحاجز زجاجي.

وخلالاً لجيل الآباء وجيل الأجداد، اللذين استبطنا القمع، لا يسلم أبناء الجيل المرفوع الرأس بالحاجز الزجاجي. إنهم يخذشونه، يطرقونه كي يوقظوا الجمهور اليهودي الجالس فوقه، وأحياناً يتبعون أسلوب الاستهزاء والمناكفة تجاه الأكثرية اليهودية والمؤسسة اليهودية. لكنهم في الوقت نفسه يتكتلون ويبلورون مجتمعاً مدنياً منفصلاً، وهوية قومية مختلفة عن هوية مجتمع الأكثرية، ويميزون أنفسهم منه عن طريق الغضب والإحباط والمناكفة، لكن أيضاً من خلال الاعتداد بالنفس. ويتجلى ذلك بشكل لا لبس فيه عبر سلسلة اقتباسات يوردها المؤلفان على لسان قادة طلبة في جامعات إسرائيلية وفي المرحلة الثانوية.

كان لدى الجمهور العربي في إسرائيل أمل قوي بأن يؤدي "الشرخ الكبير" الذي حدث في تشرين الأول/أكتوبر 2000 إلى إصلاح جذري، بأن يفتح أعين الأكثرية اليهودية والمؤسسة اليهودية على خطورة وضع الأقلية العربية، وأن يحدث تغييراً كبيراً في الحوار الإسرائيلي وفي قواعد اللعبة العامة. كان ثمة أمل بأن ينشأ على أنقاض الـ "تعايش" القديم، السطحي، المفتقر إلى المساواة، حوار متكافئ يضع الأسس لتعايش قائم على المساواة. أمّا في الواقع فقد حدث العكس. إذ لجأ الجمهور اليهودي إلى التشدد والانزواء وراء تدمير معاد للعرب. وكان أن تدهور وضع الطائفة العربية على الصعيد المدني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

يطرح كتاب رابينوفيتس وأبو بكر اقتراحاً لإصلاح الوضع متعذر التطبيق في الواقع الإسرائيلي الراهن، إلا بصورة جزئية [أن تكون إسرائيل دولة جميع مواطنيها]. إذ لا توجد إلا أقلية ضئيلة على هامش المجتمع اليهودي الإسرائيلي يمكن أن تقبل الآن، وبالذات الآن، بالتنازل عن المضامين الصهيونية الأساسية للدولة. ومن الممكن أن نتكهن بأن أقلية فقط يمكن أن توافق على سن قانون يحدد يوم ذكرى رسمياً لـ "النكبة"، أي الدمار الذي أحاق بالعرب في البلد سنة 1948، كما يقترح المؤلفان.

ومما يبعث على الاهتمام أن رابينوفيتس وأبو بكر مختلفان في مسألة ما يجب عمله في هذه الأثناء، في المدى القصير، قبل إجراء مراجعة للأسس التي تقوم الدولة عليها. يقول رابينوفيتس إن أي تحسين في مستوى معيشة المواطنين العرب في المدى القصير، وأي استثمار في البنى التحتية، وأي خطوة ليبرالية نحو فسخ المجال أمام المواطنين العرب للوصول إلى موارد الدولة، ستشكل جميعها خطوة مباركة على طريق إصلاح الوضع، والمصالحة، وترتيب العلاقات بين المواطنين العرب والدولة.

أمّا أبو بكر فإنها تعتقد أن ما يحسن البدء به لا إدخال "تحسينات على الآليات"، وإنما أمور لها طابع أكثر رمزية. وعلى حد قولها، فإن الاستثمارات المالية لن تحدث تغييراً أساسياً في مقاربة الدولة تجاه مواطنيها العرب، ولا في مقاربة الأقلية العربية تجاه الدولة، ومن الممكن أن تكون البداية المناسبة للمصالحة "أن تعتذر الدولة عن كل الإجحاف الذي ألحقته بالعرب، وأن تتحمل مسؤولية المصير التاريخي للفلسطينيين في أعقاب قيام الدولة، وهو أمر لن يحول بين الدولة وبين الاستمرار في البقاء كدولة مستقلة. وهذه خطوة ستطوي على ما هو أكثر كثيراً من التصريح." وتضيف: "يجب أن يبدأ التغيير بتغيير في الوعي."

أوري نير

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>